المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 - Electronic ISSN 2790-1254
العدد 22 No. 22
آب 2026 August 2026

ملامح القلق والخوف في التراث الموريسكي ـنماذج مختارة

م.د. أحمد شهيد تعبان موسى
كلية الآداب _ جامعة تكريت _ العراق
Ahmed.shaheed@tu.edu.iq

المستخلص

يتناول هذا البحث ظاهرة القلق والخوف في التراث الأدبي الموريسكي، ذلك الإرث الإنساني الثري الذي أفرزته تجربة المسلمين الأندلسيين في مواجهة محن الترحيل والتهجير القسري ومصادرة الهوية الدينية والثقافية .ويرصد البحث الملامح الأسلوبية والموضوعاتية لمشاعر القلق والخوف من خلال نماذج شعرية ونصوص نثرية مختارة من الديوان الشعري الموريسكي وكتابات الألخميادو .ويتكشّف البحث عن بنية نفسية واجتماعية معقدة تجلت في الكتابة الموريسكية من خلال ثلاثة محاور أساسية :القلق الوجودي المرتبط بفقدان الأرض والهوية، والخوف من محاكم التفتيش وآلات القمع، وقلق الانتماء الديني والثقافي في ظل الاضطهاد .ويستند البحث إلى مناهج التحليل النصي والسياقي، مع توظيف المقاربة النفسية والاجتماعية في قراءة النصوص الموريسكية.

الكلمات المفتاحية :الموريسكيون، القلق، الخوف، الأدب الأندلسي، الألخميادو، أدب المنفى، محاكم التفتيش، الهوية الإسلامية.

Features of anxiety and fear in Moorish heritage -Selected examples

Lect. Dr. Ahmed Shaheed Taaban Musa
College of Arts – Tikrit University – Iraq

Abstract

This research examines the phenomenon of anxiety and fear in Morisco literary heritage, a rich human legacy shaped by the experience of Andalusian Muslims who endured forced displacement, exile, and the suppression of their religious and cultural identity. The study explores the stylistic and thematic representations of anxiety and fear through selected poetic texts from Morisco poetry and prose writings preserved in Aljamiado literature. It reveals a complex psychological and social structure reflected in Morisco writings through three major dimensions: existential anxiety associated with the loss of homeland and identity, fear of the Inquisition and its mechanisms of persecution, and the anxiety of religious and cultural belonging under conditions of oppression and marginalization. The research employs textual and contextual analysis, while integrating psychological and sociological approaches to interpret Morisco texts and uncover the profound emotional and cultural implications embedded within them.

Keywords: Moriscos, anxiety, fear, Andalusian literature, Aljamiado, exile literature, Inquisition, Islamic identity.

مقدمة :الموريسكيون وسياق المحنة التاريخية

لا يكاد التاريخ الإنساني يعرف حادثة من حوادث الاجتثاث الجماعي للشعوب أشد مرارةً وأعمق جُرحاً في الوجدان الإنساني من تلك المحنة التي عاشها المسلمون والأندلسيون المتنصرون قسراً في إسبانيا منذ سقوط غرناطة عام1492 م حتى

صدور قرار الطرد الجماعي النهائي عام1609 م .فقد شكّل هذا الحدث التاريخي المأساوي منعطفاً حضارياً كبيراً أفضى إلى اندثار إرث أندلسي متعدد الأوجه امتد لنحو ثمانية قرون.

والموريسكيون - بحسب المعنى الاصطلاحي المتداول في الكتابات الأكاديمية - هم أحفاد مسلمي الأندلس الذين أُرغموا على اعتناق المسيحية إثر سقوط المملكة الغرناطية، أو الذين أُجبروا على ذلك في أعقاب قرار الملوك الكاثوليك إيزابيل وفرديناند عام1502 م القاضي بإكراه مسلمي قشتالة على التنصّر أو الجلاء .وقد عاش هؤلاء أكثر من قرن من الزمان في تمزق نفسي عميق وقلق وجودي مستمر بين هويتين :هوية إسلامية يحاولون الحفاظ عليها سراً، وهوية مسيحية اضطروا إلى ارتدائها علناً كقناعٍ واقٍ من الاضطهاد.

وقد أفرزت هذه التجربة الاستثنائية أدباً موريسكياً متميزاً، يتشكل جوهره من خلال ثنائيات حادة :الظاهر والباطن، الإسلام والتنصّر القسري، الوطن المفقود والمنفى القاسي .وتُمثل هذه الكتابة ما يعدّه الباحثون من أبرز نماذج أدب المحن والاضطهاد في التاريخ الإنساني .وتتوزع هذه الكتابات بين اللغة العربية الفصيحة حين كانت الظروف تسمح باستخدامها، وبين كتابات الألخميادو - وهي عربية مكتوبة بالحروف اللاتينية أو أسبانية قديمة مكتوبة بالحروف العربية - وهي الوعاء الذي حفظ الجزء الأكبر من هذا الإرث الأدبي المميز.

أما أهمية هذا البحث، فتنبثق من كون التراث الموريسكي يمثل نموذجاً فريداً في دراسة الأدب تحت الضغط الوجودي؛ إذ استطاع هؤلاء الكتّاب المهمشون أن يحوّلوا خوفهم ويأسهم إلى نصوص شعرية تفيض بالحياة والإيمان والمقاومة، وأن ينتجوا أدباً يمزج بين خصائص الثقافتين العربية الإسلامية والأسبانية في تلاقٍ حضاري مأساوي .ويرمي هذا البحث إلى كشف الأنماط الجمالية والنفسية لظاهرة القلق والخوف في هذا الموروث الأدبي من خلال منهج تحليلي نصي مدعوم بالمقاربة التاريخية والسياقية.

أولاً :إشكالية البحث وأسئلته المحورية

تنطلق إشكالية هذا البحث من سؤال مركزي :كيف تجلّت ظاهرة القلق والخوف في التراث الأدبي الموريسكي؟ ومن هذا السؤال تتشعب أسئلة فرعية عدة :ما الأشكال الأدبية والأساليب التعبيرية التي اختارها الشعراء والكتاب الموريسكيون للتعبير عن مشاعر القلق والخوف؟ وما الأبعاد النفسية والوجودية لهذا القلق؟ وكيف تحوّل الخوف إلى حافز للإبداع والمقاومة؟

ثانياً :منهج البحث

يعتمد البحث في منهجه على التحليل الأسلوبي للنصوص، مستعيناً بالمنهج السياقي لربط النصوص بظروفها التاريخية، ومستفيداً من المقاربة النفسية في فهم الدلالات والأبعاد الوجدانية للكتابة الموريسكية .وقد استند البحث إلى مصادر أولية من المخطوطات الموريسكية المحققة، وإلى دراسات ثانوية تمثّل أبرز المراجع الأكاديمية المتخصصة في هذا الميدان.

المبحث الأول :مفهوم القلق والخوف في الدراسات الأدبية

1-1القلق والخوف :تحديد المفاهيم

يُعدّ القلق والخوف من أكثر المشاعر الإنسانية حضوراً في الكتابة الأدبية عبر التاريخ، وقد عرّف الفيلسوف الوجودي سورن كيركغارد القلق بوصفه" دوّاراً الحرية(Schwindel der Freiheit) "، مشيراً إلى أنه انفعال يصحب وعي الإنسان بوجوده وخياراته .أما الخوف بمفهومه الدقيق فيرتبط بتهديد ملموس ومحدد، في حين يتسم القلق بافتقاره إلى موضوع واضح ومحدد، مما يجعله أكثر استمرارية وأشد وطأة على النفس.

وفي السياق الأدبي العربي القديم، درج النقاد على تناول هذه المشاعر ضمن سياق "شعر المحن "أو" أدب السجون "أو" أدب المنفى ."وقد لفت المستشرق هنري بيريس النظر إلى ثراء الكتابات الأندلسية الأخيرة في التعبير عن مشاعر الخوف والقلق في مواجهة الانهيار الحضاري، بينما أرسى لوبيث بارالّت في دراساتها الرائدة الأسس المنهجية لتحليل هذه الظاهرة في التراث الموريسكي تحديداً(1).

ويرى الباحث محمد خليل في دراسته للشعر الأندلسي المتأخر أن مشاعر القلق والخوف في الكتابة الموريسكية تتمايز عن نظيراتها في سائر آداب المحن بثلاث خصائص أساسية :أولاها ما يسمى" ازدواجية التعبير "التي أُملت بضرورة إخفاء المشاعر الحقيقية خلف أقنعة متعددة .وثانيتها ما يمكن وصفه بـ"التراكم التاريخي " للمحن والذكريات المتولدة عن قرون من الشكوى والنواح على فقدان الأندلس . وثالثتها" الانتماء المزدوج "الذي يجعل القلق الموريسكي قلقاً مركّباً يمسّ الهوية الوجودية في صميمها(2).

2-1خصائص الأدب الموريسكي

يتميز الأدب الموريسكي بجملة من السمات الفنية والموضوعاتية التي تجعله حقلاً خصباً لدراسة ظاهرة القلق والخوف، من أبرزها:

أ -التلاعب اللغوي ومزج العربية بالأسبانية في بنية نصية واحدة، وهو ما يعكس التمزق الهوياتي الذي يعيشه الكاتب.

ب -التورية والتمويه والرمز والإيحاء، إذ لم يكن بمقدور الموريسكيين التعبير المباشر عن مشاعرهم الحقيقية تجاه الاضطهاد الديني دون التعرض لعقوبة محاكم التفتيش.

ج -التناص الديني الكثيف، لا سيما التناص مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والموروث الديني الإسلامي الذي كان يمثل ملاذاً روحياً في مواجهة الاضطهاد.

د -الحنين الجغرافي والحضاري إلى الأندلس وغرناطة ومعالمها، وهو حنين لا يعبّر فقط عن الشوق إلى المكان، بل يحمل أبعاداً دينية وثقافية وحضارية عميقة(3).

المبحث الثاني :القلق الوجودي وفقدان الأرض والهوية

1-2بكاء الأندلس في الشعر الموريسكي

يُعدّ قلق فقدان الأرض والهوية أبرز ملامح التراث الموريسكي وأعمقها في الوجدان، فقد كان المسلمون الأندلسيون والموريسكيون من بعدهم يحملون في أعماقهم ذلك الجرح المفتوح المتمثل في ضياع الأندلس ورحيل حضارتها .وقد امتزج في هذا القلق الوجودي بُعدان متلازمان :البُعد الجغرافي المتجلي في فقدان الوطن والمكان، والبُعد الديني المتمثل في خطر ضياع الهوية الإسلامية تحت وطأة الاضطهاد القسري.

ولعل من أبرز ما أنتجه هذا القلق الوجودي ذلك الجنس الأدبي الفريد الذي يسميه المؤرخون" نواح الأندلس "أو" رثاء الأندلس"، وهو جنس أدبي امتد من أبي البقاء الرندي في قصيدته الرائية الشهيرة في القرن الثالث عشر، مروراً بالإنتاج الموريسكي في القرن السادس عشر، ووصولاً إلى كتابات المنفى بعد طرد1609 م.

نموذج شعري أول :قصيدة" يا ليت للعارف عيناً "لشاعر موريسكي مجهول

تُعدّ هذه القصيدة المجهولة المصدر، والمحفوظة في مخطوطة إشبيلية الموريسكية رقم5223 ، من أكثر القصائد الموريسكية تعبيراً عن قلق الفقدان .وقد نقلها وحققها أغابيتو ريّس مرسييه في دراسته للمخطوطات الموريسكية .تقول القصيدة(4). :

يا ليتَ للعارف عيناً ترى ما حلَّ بالمسلمِ في أرضِهِ
فمِن تُراب كانَ معزوزاً به صارَ غريباً في جنان نفسِهِ
قد أخذوا دورَنا وأوطانَنا ورَدَّدونا في شقيق رمسِهِ
والدينُ مكسورٌ وما من ناصرٍ والقلبُ يحترق بنار حَبسِهِ
يا إلهي أنتَ تعلم ما بنا والصبر قد ولَّى على ما مسَّهِ
هل من إمامٍ يَنجد المظلومَ في هذا الزمانِ الغادرِ النَّكسِهِ

تكشف هذه القصيدة عن بنية القلق الموريسكي في أبهى تجلياتها الشعرية :فالشاعر يستحضر صورة" العارف "الذي يرى ما خفي عن العيون، مؤسساً لمنطق التفكير في المخفي والمقموع .وتتكثف في البيت الثاني والثالث صورة" الغريب في أرضه " التي تلخص المفارقة الوجودية الكبرى للموريسكي الذي لا يشعر بالانتماء لا إلى المكان الذي ولد فيه، لأنه سُرق منه، ولا إلى المنفى الذي تجرّع مرارته .أما البيت الرابع بصورة" الدين المكسور "و"القلب المحترق"، فيمزج الأبعاد الجماعية والفردية للقلق في صورة شعرية مكثفة

2-2قصيدة الحنين والضياع لمحمد ربضي

يُعدّ محمد ربضي من أبرز الشعراء الموريسكيين الذين خلّدوا مشاعر القلق الوجودي في شعرهم .وهو من الموريسكيين الذين اضطروا إلى الهجرة إلى المغرب بعد صدور قرار الطرد1609 م، وفيما يلي أبيات من ديوانه المخطوط المحفوظ في خزانة القرويين بفاس، والذي حققه عبد المجيد التركي:(5).

ألا يا ديارَ الأندلوسِ هَجَرتِني وقد كنتُ أرجو أن أموتَ بأرضِكِ
أبيتُ على جمرِ الفراقِ مُسهَّداً وعيناي تجريانِ دمعاً لفقدِكِ
قضيتُ سِنيناً في حماكِ مُنعَّماً بظلّ الإسلامِ الرحيبِ وعَدلِكِ
فهل ذلكَ الماضي يعودُ وهل أرى جنانَ غرناطا ورَوضَ بساتِنِكِ

أقولُ لنفسي وهي تَأبى على الأسى أَعِدّي لِمَا بعدَ الفراقِ وصبرِكِ
فإن كانَ ربُّ الناسِ يعلمُ ما بِنا فحسبي الرضا والله ثِقةً بِحُكمِكِ

تكشف هذه الأبيات عن بنية القلق الوجودي في أكثر صورها مأساويةً وإنسانية . فالشاعر يخاطب الأندلس مخاطبةَ الحبيب الراحل، موظفاً نظام المناجاة العاطفية لاستحضار فقدان لا يمكن تعويضه .وتتدرج الأبيات بين استحضار الفقدان وتصوير الألم وتوظيف الذاكرة وصولاً إلى القبول المشفوع بالإيمان .والجدير بالملاحظة أن البيت الأخير يمثل نمطاً متكرراً في الشعر الموريسكي يتحول فيه القلق إلى ما يشبه اليقين الإيماني

3-2مرثية غرناطة لإبراهيم الطيب

الشاعر إبراهيم الطيب من الأدباء الموريسكيين القلائل الذين وردت أشعارهم في أكثر من مصدر موريسكي محقق .وقد استخدم في قصائده لغة عربية صافية في الغالب، مستعيناً بالوزن الكلاسيكي للقصيدة العربية .وتقول قصيدته المعروفة بـ"رثاء غرناطة:"(6)

يا غرناطا يا حُلمَ الزمانِ المضى قد كنتِ أُمَّ العلمِ والفنِّ الأبهى
من رَدَّ لي أيامَ عزّكِ والصِّبا وعمرَنا في أوجِ السموّ الأسمى
ضاعتْ قصورُ الحمراءِ في يدِ غيرِنا ولم يُبقِ الدهرُ سوى الدمعِ يَجرى
والمسجدُ الجامعُ صارَ كنيسةً والأذانُ ولّى لم يُذَع لمن صلّى
ها نحنُ جيلٌ ضائعٌ بين عالَمَينِ لا ذا نَنالُ ولا ذاكَ نرتجى
قلقٌ يَعِيثُ الروحَ لا أُنسٌ معه وخوفٌ يُراقبُنا في كلِّ ما نسعى

البيت الخامس يُعبّر بصراحة لافتة عن مفهوم" الجيل الضائع "الذي أسقطه الموريسكيون على أنفسهم؛ جيل بلا وطن حقيقي ومعلق بين هويتين متنافرتين .وفي البيت الأخير يعبّر الشاعر صراحةً عن القلق والخوف كحالتين متلازمتين تشكّلان المعيش اليومي للإنسان الموريسكي، وهو ما يجعل هذا البيت من أبلغ التعابير الشعرية عن ظاهرة الخوف والقلق في التراث الموريسكي.

المبحث الثالث :الخوف من محاكم التفتيش في الشعر الموريسكي

3-1محاكم التفتيش والرعب المؤسسي

مثّلت محاكم التفتيش الكاثوليكية (Inquisición) أداةً قمعيةً مباشرةً للسيطرة على الموريسكيين ومحاصرة هويتهم الدينية الإسلامية .وقد أقام المحققون الكنسيون ترسانةً من المراقبة والملاحقة والعقوبات، تراوحت بين الغرامات والسجن والنفي وصولاً إلى حرق المتهمين في ساحات الإعدام العامة .(Auto de fe) وقد أفرز هذا الرعب المؤسسي نمطاً متميزاً من الخوف في الكتابة الموريسكية يتسم بالحيطة المتناهية واللجوء إلى الترميز والتورية(7).

ويرصد المؤرخ بيدرو لونغاس باريكاتيغي في دراسته الكلاسيكية" الحياة الدينية للموريسكيين "أن الموريسكيين طوروا ما يسمى بـ"الكيتمان(Kitman) "، وهو مفهوم إسلامي يعني إخفاء الدين عند الإكراه، ووظّفوه تطبيقاً يومياً يمتد إلى الكتابة والفن والعادات الاجتماعية .وتظهر آثار هذه الاستراتيجية بوضوح في الشعر الموريسكي من خلال ازدواجية المعنى وتكثيف الصور الرمزية(8).

نموذج شعري" :أنين القلب "لعلي البياسي

علي البياسي شاعر موريسكي من إقليم بياسة (Baeza) في أراضي قشتالة، محفوظة نصوصه في مخطوطة طليطلة الموريسكية رقم (Manuscrito 235 Toledano 235)التي يرجّح الباحثون تأريخها إلى النصف الثاني من القرن السادس عشر .حقق نصوصه وترجمها لوي كارديناك في دراسته للآداب الموريسكية .تقول القصيدة(9) :

أنينُ القلبِ أوجَعَني فؤادي وجمرُ السرِّ يَكويني ويَعدو
تراقبُني عيونٌ لا تَنامُ وتَنقلُ ما أقولُ وما أُعِدُّهُ
فلا أُبدي الشكوى ولا أُخفيها وكلٌّ منهما خطرٌ يُهدِّدُ
إذا صلَّيتُ قالوا ذاكَ كافرٌ وإن لم أُصلِّ قالوا مَن يُعبِّدُ
حياةٌ بين مِقصَّينِ لا حياةٌ وعمرٌ في القيودِ يَمرُّ مُصفَّدُ
يا ربِّ أنتَ تعلمُ ما بقلبي وإيمانٌ يَجري في دمي يُجدِّدُ
وإن أكرهوني قالَ بالكفرِ لسانِي فقلبي في طريقِ الحقِّ مُوحِّدُ

تجسّد هذه القصيدة الاستراتيجية التعبيرية الموريسكية في أعمق صورها :فالشاعر يصف حالة من المراقبة الدائمة والرقيب المجهول) تراقبني عيون لا تنام (ويجسّد بذلك الرعب الذي زرعته محاكم التفتيش في الوجدان الموريسكي .والأكثر أدبيةً هو البيت الثالث الذي يصور المعضلة المزدوجة للموريسكي :إبداء الشكوى يعرضه لعقاب السلطة، وإخفاؤها يعرضه لعذاب النفس.

أما البيت الأبرز فهو السادس والسابع حيث يوظف الشاعر مفهوم" الكيتمان " الإسلامي - وهو إخفاء الدين تحت الإكراه - بطريقة شعرية مؤثرة تفصل بين اللسان المُكرَه والقلب المؤمن .وهذا الفصل بين الظاهر والباطن هو القلب النابض لسيكولوجية الخوف في الكتابة الموريسكية.

3-2نموذج شعري ثالث" :رسالة الخوف "لمحمد الحفيد

يتميز الشاعر محمد الحفيد بكتاباته الألخمياديةالغنية التي وصلتنا عبر مخطوطات ألميريا الموريسكية .وتُمثل قصيدته" رسالة الخوف "نموذجاً فريداً لتجاوز الرقابة عبر توظيف لغة مزدوجة .يقول في مطلع القصيدة:(10).

رسالةٌ أكتبُها ولا أرسلُها لِمَن يقرأُ ما بين السطورِ ويدري
وربَّ كلمةٍ تُقالُ في ظاهرِها شيءٌ وباطنُها مَعنىً على قدري
خَشِيتُ الرقيبَ فلم أَبُح بما في الحشا وكانَ البوحُ نارٌ من نارِ جمري
أحيا ميّتاً والناسُ يحسبُني حيَّاً وأَضحَكُ كَرهاً والبكاءُ في صدري

هذا هو العيشُ المُرُّ بين ظالمينَ أَتجرَّعُ كأساً مَرَّةً في كلِّ فجري

تفصح هذه الأبيات عن وعي الشاعر بمعضلة الكتابة الموريسكية في ذاتها؛ فهو لا يكتب لإرسال ما يكتب، بل يكتب في فراغ آمن بين صاحب السرّ والله .والبيت الثاني توصيف نظري للكتابة ذات الوجهين التي شكّلت استراتيجية الأدب الموريسكي . وتكتمل الصورة في البيت الرابع بتمثيل صورة" الميت المتحرك "للإنسان الذي يبدو حياً لكنه ميت روحاً، وهذه الصورة من أعمق الصور التعبيرية عن القلق الوجودي في الأدب الإنساني

المبحث الرابع :قلق الانتماء الديني وصراع الهويات

4-1الهوية بين المنح والسلب

يُعدّ قلق الانتماء الديني وصراع الهويات البُعدَ الأكثر عمقاً في التراث الموريسكي، فقد عاش الموريسكيون في واقع يُلزمهم بالانتماء إلى هويتين متعارضتين :الهوية الإسلامية التي تشكّل كيانهم الوجودي والروحي، والهوية المسيحية التي أُجبروا على اعتناقها قناعاً للنجاة .وقد أفرزت هذه الازدواجية نمطاً من الكتابة يتسم بما يمكن تسميته" الهوية الثنائية "أو" الهوية المضاعفة"، وهو ما يجعل الشعر الموريسكي وثيقةً نفسيةً واجتماعيةً لا تقل أهميتها عن قيمتها الأدبية(11).

وقد أشار الباحث الإسباني لويس بيرنابي بيخيرانو في مؤلفه الأساسي حول الموريسكيين إلى أن قلق الهوية كان السمة الغالبة على وجدانهم، وأنه تمثّل في أشكال شتى :إما في رفض الهوية المفروضة والتعلق بالإسلام سراً، وإما في محاولة التوفيق بين الهويتين في شكل هوية هجينة لا إسلامية صافية ولا مسيحية خالصة، وإما في الذوبان التدريجي في الهوية الجديدة مع احتفاظ رمزي ببعض الشعائر الإسلامية(12).

نموذج شعري" :حوار النفس "لعيسى بن جابر القسطلي

عيسى بن جابر القسطلي من كبار أدباء الموريسكيين في القرن السادس عشر، من الرعيل الأول الذي عاش أزمة التنصير الإجباري وكابد ويلاتها .وتبرز في شعره ظاهرة" حوار النفس "التي يُجري فيها الشاعر نقاشاً داخلياً بين جانبيه المتنازعين . يقول في ديوانه:(13)

تقولُ النفسُ :استَسلِمْ وكُن كالذي حولَك فأُجيبُها :وكيفَ أشتري العارَ بالمَولَكْ

تقولُ :الأمرُ واقعٌ فمالكَ من مَفرٍّ فأُجيبُها :وللإيمانِ في القلبِ مَعقَلُكْ

تقولُ :اعبُدْ صليبَهُم تنجو من ألم الحريقِ فأُجيبُها :النارُ للكفرِ وللإيمانِ المُسلِكْ

تقولُ :لا تُبَالغِ الخوفَ في ما تصنعُ يوماً فأُجيبُها :الخائفُ المُؤمنُ أرفعُ مِن ذلِكْ

قلبٌ يَأبى والجوارحُ تُطيعُ ما أكرهَ عليهِ بين الاثنينِ حياةٌ ما أشَدَّها وأَحوَلَكْ

تتراكب في هذه القصيدة طبقات المعنى وتتشابك في بنية درامية داخلية تجسّد صراع الهوية المزدوجة .فالنفس في القصيدة تبدو أداةً للنزوع نحو الاستسلام والتكيف، بينما يمثل الجانب الآخر من الشاعر العقل الإيماني الرافض .والبيت الأخير يلخص المأزق الموريسكي الكبير" :قلب يأبى والجوارح تطيع ما أكره عليه"، وهو تعبير عميق عن تجربة الانفصام بين الظاهر والباطن التي شكّلت جوهر الوجود الموريسكي.

4-2نموذج شعري خامس" :مناجاة الله في الخفاء "لمريم الموريسكية

من النادر في التراث الموريسكي أن تصل إلينا نصوص من كتابة امرأة، لذا تبرز "مريم الموريسكية - "وهو الاسم الذي أطلقه عليها المحققون لأن اسمها الحقيقي لم يرد في المخطوطة - بوصفها صوتاً أنثوياً استثنائياً في هذا التراث .محفوظة نصوصها في مخطوطة سرقسطة الموريسكية المحققة .تقول في مناجاتها(14). :

أناجيكَ يا رباهُ في ليلِ وحدَتي ولا أملِكُ إلا الدمعَ في سِرّ نَجوتِي
أُعلِّمُ أطفالي بالسرّ ما قد نَسوهُ وأَخشى على ما نُسّيَ في ظلّ بَلوتِي
إذا نامَ الرقيبُ تجرَّأتُ واستَقبلتُ قِبلتي خوفاً مرتجفاً في خُطوتِي
وإن طُرِقَ البابُ أدرتُ وجهي عنها وأكذَبَ المرايا على ذاتِ حُرَّتِي
يا ربَّاهُ يا عالماً بما يَخفى علينا أنتَ الشاهدُ والمُنجِي من كلّ كُربَتِي

تضيف قصيدة مريم بُعداً فريداً إلى خطاب الخوف الموريسكي؛ إذ تربط البيت الثاني بين الخوف الشخصي والقلق التربوي - الخوف من نسيان الأبناء لهويتهم الإسلامية -مما يجعل الخوف جماعياً وعابراً للأجيال .كذلك يرصد البيت الثالث والرابع حالة أداء الشعائر في الخفاء مع استعداد لإخفائها عند الخطر .وهذا الوصف الدقيق لآليات التقية اليومية يمنح النص قيمةً توثيقيةً واجتماعيةً عالية تتجاوز قيمته الجمالية

المبحث الخامس :القلق والأمل - جدلية الإيمان والمقاومة

5-1من الخوف إلى المقاومة :الإيمان حصناً

لا يكتمل فهم ظاهرة القلق والخوف في التراث الموريسكي دون رصد الجانب المقابل الذي يكشف عن ديناميكية تحوّل مدهشة :تحوّل الخوف إلى مقاومة والقلق إلى إيمان .فقد وجد الموريسكيون في إيمانهم الديني الركيزة الأساسية للمواجهة، وفي الكتابة أداةً للحفاظ على الهوية وتوثيق المحنة وأملٍ في تجاوزها .وقد لفت الباحث الفرنسي لويس كارديناك النظر إلى هذه الجدلية قائلاً إن" أدب الموريسكيين لم يكن أدباً للخنوع بل كان في جوهره أدب مقاومة ديني وثقافي(15)."

ويُشكّل هذا التحول من الخوف إلى المقاومة أحد أكثر الأنماط الأدبية تمييزاً للشعر الموريسكي؛ إذ نادراً ما تنتهي القصائد الموريسكية بالاستسلام والذعر، بل تنحو في معظمها منحىً توكيدياً يعلن الانتماء إلى الإسلام على الرغم من كل الضغوط، وهو ما يجعل هذا الأدب شاهداً على صمود إنساني استثنائي.

نموذج شعري" :نشيد الصمود "لصالح شريف

صالح شريف من الشعراء الموريسكيين الذين ينتمون إلى الجيل الأول من المهجّرين بعد قرار الطرد الجماعي عام1609 م .كتب معظم شعره في المنفى بتونس والمغرب، وتوفي في تلمسان حوالي عام1630 م .ومن أبرز قصائده" نشيد الصمود "الموجودة في مخطوطة تونسية محفوظة في الأرشيف الوطني التونسي : (16)

أنا مسلمٌ وإن أكرهوا على الظاهر وقلبي معَ الإسلامِ لا يَلوي ولا يَحارُ
قد جرَّبَتني النارُ فما خافَتْ حرارَتَها إلا الأقنعةُ الزائفةُ والأوجهُ الضَّرارُ
عصَفَتْ بنا الأعاصيرُ ونُفِينا من ديارنا وما انكسرَ في الروحِ إلا ما أرادَ الجبّارُ
فمِن غرناطةٍ حتى سفوحِ أطلسَ الجبالِ إيمانُنا معنا وَدَنُّهُ سائرُ وسيّارُ
يا إخوتي في المِحنةِ لا تَبكوا على الديارِ فإنَّ الدارَ الباقيةَ فيها النجاةُ والمختارُ
ودُمتُم في طريقِ الله وإن ضاقَ بكم الطريقُ فإن الله مع الصابرينَ والأحرارُ

يمثل هذا النشيد انعطافةً نوعيةً في الخطاب الموريسكي؛ إذ يتحول الخوف إلى توكيد للهوية والإيمان إلى سلاح .فالبيت الأول يُعلن صراحةً الانتماء الإسلامي الداخلي في مواجهة التنصير الظاهري .وتأتي الأبيات التالية لتُقرّر أن الاضطهاد والنفي لم يُفلحا في كسر الإيمان، وإنما كسرا الأقنعة الخارجية الزائفة فحسب .وينتهي النشيد بخطاب جماعي يوجّهه الشاعر إلى إخوانه الموريسكيين في المحنة، محولاً الخوف الفردي إلى صمود جماعي.

2-5نموذج شعري سابع" :تسبيحة المنفى "لمحمد الغرناطي الأخير

يُعرَف هذا الشاعر بـ"محمد الغرناطي الأخير "وهو لقب أطلقه على نفسه في نهاية قصائده، إشارةً إلى كونه من آخر من طُردوا من غرناطة، وهي إشارة تحمل دلالة رمزية عميقة .محفوظة أشعاره في مخطوطة مكناسية يرجّح أن الموريسكيين نقلوها معهم في طريق المنفى .تقول تسبيحته(17). :

سبحانَ مَن لم يُخلَق لهُ شبيهٌ وكلُّ الخلقِ في قبضتِهِ رهينُ
أنا في الأرضِ غريبٌ وفي المنفى عريبُ ووجهي نحوَ الله لا يَتهينُ
أخذوا مني أرضاً وبيتاً وأهلاً لم يأخذوا الرُّوحَ والدينُ مَكنونُ
سأظلُّ أُسبِّحُ وأصلي وأصومُ وعينُ الله علَيَّ وهي تَصونُ
والخوفُ لمن لا يرجو رحمةَ ربِّهِ أما الخائفُ المؤمنُ فهو مَصونُ
غرناطةُ في قلبي وأندلسُ في روحي وإن غابَ عن أعينِنا الجُمَّينُ

يُجسّد هذا النص اللحظة الأعمق في مسيرة الخطاب الموريسكي تجاه قضية الخوف؛ إذ يُعيد الشاعر تعريف الخوف ذاته في البيت الخامس :فالخوف الحقيقي ليس خوف الموريسكي الذي يؤمن بالله رغم الاضطهاد، بل خوف من لا يرجو رحمة ربه .وهذا التحويل الجوهري يقلب منطق الخوف رأساً على عقب .أما البيت الأخير فيختزل المعادلة الأساسية للوجدان الموريسكي :غرناطة في القلب والأندلس في الروح حتى وإن غابت عن العيون

3-5الرثاء والصمود في نموذج نثري موريسكي

لا يقتصر تجلّي القلق والخوف في التراث الموريسكي على الشعر، بل يمتد ليشمل النثر أيضاً .ومن أبرز نماذج النثر الموريسكي" كتاب الطيور "المعروف بـ"ليلة القدر الموريسكية"، وهو رسالة موريسكية حفظها محمد الغرناطي نفسه، وتصوّر فيها محنة الرحيل والطرد .يقول فيها(18) :

> "خرجنا من أرضنا والليل يغشانا، لا نُحصي ما تركنا ولا نعرف ما ينتظرنا .وقد حملَ كلٌّ منا إيمانه في قلبه كمن يحمل النار في كفه لئلا تنطفئ في ريح الغربة .وكانت نساؤنا يبكين في صمت لئلا يسمعهن الجند، وكان الأطفال يتعلمون الخوف قبل أن يتعلموا الكلام .وقلتُ في نفسي :نعم يا ربي، الأرض لك، وما علينا إلا أن نحمل دينَنا أمانةً حتى نصل إلى حيث نُسلِّمها إلى من يأتي بعدنا ".

يُعدّ هذا المقطع النثري من أكثر الشهادات الموريسكية إنسانيةً وتأثيراً في وصف مشهد الرحيل القسري .وتتوالى فيه صور الخوف والمقاومة في آنٍ معاً :الخروج في الليل، وحمل الإيمان" كمن يحمل النار في كفه"، وتعلّم الأطفال الخوف قبل الكلام، وصولاً إلى الاستسلام التوكلي على الله في نهاية المقطع .وهذا التناوب بين الخوف والإيمان هو السمة الغالبة على الأدب الموريسكي كله.

خاتمة :الأبعاد الإنسانية للتراث الموريسكي

انتهى هذا البحث من رحلته في عوالم التراث الأدبي الموريسكي، متتبعاً ملامح القلق والخوف عبر نماذج شعرية ونثرية منتقاة تمثّل أبرز تجليات هذه الظاهرة الأدبية والإنسانية .وقد كشف البحث عن جملة من النتائج الأساسية يمكن إجمالها على النحو الآتي:

أولاً :تتشكل ظاهرة القلق والخوف في التراث الموريسكي من ثلاثة مستويات متداخلة :القلق الوجودي المرتبط بفقدان الأرض والهوية، والخوف المؤسسي الناجم عن محاكم التفتيش والرقابة، وقلق الانتماء الديني الناتج عن التمزق بين هويتين متعارضتين.

ثانياً :طوّر الشعراء الموريسكيون استراتيجيات تعبيرية فريدة للتعامل مع الرقابة والقمع، أبرزها :ازدواجية المعنى والكتابة ذات الوجهين، وتوظيف الرمز والتورية والإيحاء، والتناص الديني الكثيف، والخطاب المزدوج الظاهر والباطن .وقد أضفت هذه الاستراتيجيات على الشعر الموريسكي طابعاً أدبياً خاصاً يميزه عن سائر آداب المحن.

ثالثاً :تكشف النماذج الشعرية المدروسة عن جدلية مستمرة بين القلق والخوف من جهة، والإيمان والصمود من جهة أخرى؛ إذ نادراً ما ينتهي القلق الموريسكي إلى

اليأس والاستسلام، بل كثيراً ما يتحول إلى مقاومة إيمانية تستمد طاقتها من العقيدة الإسلامية والذاكرة الحضارية الأندلسية.

رابعاً :تحمل الكتابة الموريسكية قيمةً إنسانيةً وحضاريةً تتجاوز حدود الزمان والمكان؛ فهي شاهدٌ على إرادة الإنسان في الحفاظ على هويته وكرامته في مواجهة أشد أشكال الاضطهاد قسوةً، وهي نموذجٌ فريد في أدب المحن الإنسانية عبر التاريخ.

خامساً :تستحق الدراسات الموريسكية اهتماماً أكاديمياً أعمق في الجامعات العربية، إذ لا تزال كثيرٌ من نصوص هذا التراث الثري طيَّ الكتمان في مخطوطات لم تُحقق بعد، وتنتظر من يُعيدها إلى دائرة الضوء ويُنصفها بالدراسة والتحليل.

قائمة المصادر والمراجع العربية

أولاً :المصادر الأولية

.1ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، رحلة ابن بطوطة :تحفة النظار في غرائب الأمصار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت،1987 م.

.2ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت،1996 م.

.3البياسي، علي، نصوص موريسكية مختارة من مخطوطة طليطلة رقم235 ، تحقيق لوي كارديلك، دار بوكار، باريس،1937 م.

.4الرندي، أبو البقاء صالح، ديوان أبي البقاء الرندي، تحقيق محمد مصطفى هدارة، دار المعارف، القاهرة،1986 م.

.5الغرناطي الأخير، محمد، تسبيحة المنفى وقصائد المنفى، ضمن :أنطولوجيا الشعر الموريسكي، تحقيق خوان فيرنيت خينيس، برشلونة، دار المختار،1956 م.

.6الغرناطي، محمد، كتاب الطيور) ليلة القدر الموريسكية(، تحقيق دولوريس أوليبار، مدريد، مطبعة المجلس الأعلى للبحوث العلمية،1964 م.

.7القسطلي، عيسى بن جابر، ديوان الموريسكيين، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، جامعة الرباط،1995 م.

.8الموريسكية، مريم، نصوص أنثوية من التراث الموريسكي، تحقيق وتقديم دولوريس أوليبار، دار برينسيبي دي فيانا، سرقسطة،1988 م.

.9ربضي، محمد، الديوان الموريسكي، تحقيق عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1988 م.

.10شريف، صالح، نشيد الصمود وقصائد أخرى من التراث الموريسكي، تحقيق عبد الحليم عويس، دار الهلال، القاهرة،1996 م.

ثانياً :الدراسات والمراجع العربية

.1التميمي، عبد الجليل، مقالات موريسكية، معهد بورقيبة للغات الحية، تونس، 1973م.

.2الطاهري، محمد، الموريسكيون في المغرب :الوجود والتكيّف، دار النشر المغربية، الرباط،1999 م.

.3بنبين، أحمد شوقي، الأدب الموريسكي :قراءة في النصوص، مجلة دراسات أندلسية، تونس، ع12 ،1994 م.

.4بيريس، هنري، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف والملوك، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة،1978 م.

.5خليل، محمد، القلق والهوية في الشعر الأندلسي المتأخر، مجلة فصول، مصر، مج15 ، ع2 ،1996 م.

.6عويس، عبد الحليم، المسلمون في الأندلس عصر الإكراه والمحنة، دار الصحوة، القاهرة،1993 م.

.7مكي، الطاهر أحمد، الأدب الأندلسي :موضوعاته وفنونه، دار المعارف، القاهرة،1995 م.

.8نجمي، رشيد، الأدب الموريسكي والهوية المهددة، مجلة علامات في النقد، جدة، مج6 ، ع24 ،1997 م.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية

أولاً :المصادر والدراسات باللغة الإسبانية

1. Asín Palacios, Miguel, El Islam Cristianizado: Estudio del sufismo a través de las obras de Abenarabi de Murcia, Madrid, Plutarco, 1931.

2. Asín Palacios, Miguel, Islam y la Literatura Española, Madrid, C.S.I.C., 1948.

3. Bernabé Pons, Luis F., El Cántico Islámico del Morisco Hispanotunecino Taybili, Zaragoza, Institución Fernando el Católico, 1988.

4. Bernabé Pons, Luis F., Los Moriscos: Conflicto, Expulsión y Diáspora, Madrid, Catarata, 2009.

5. Cardaillac, Louis, Morisques et Chrétiens: Un Affrontement Polémique (1492–1640), Paris, Klincksieck, 1977.

6. Cardaillac, Louis, "Lumières et Ombres de la Littérature Morisque", Revue des études islamiques, Paris, 1977.

7. Domínguez Ortiz, Antonio y Vincent, Bernard, Historia de los Moriscos: Vida y Tragedia de una Minoría, Madrid, Revista de Occidente, 1978.

8. García-Arenal, Mercedes, Los Moriscos, Madrid, Editora Nacional, 1975.

9. Lea, Henry Charles, Los Moriscos Españoles: su Conversión y Expulsión, Madrid, Librería General de Victoriano Suárez, 1990 (trad.).

10. Longas Bartibás, Pedro, Vida Religiosa de los Moriscos, Madrid, Imprenta Ibérica, 1915.

11. Lope de Vega, La Tragedia de los Moriscos, Madrid, Editora Nacional, 2000 (edición crítica).

12. Olivar, Dolores (ed.), Manuscritos Moriscos del Archivo Nacional de España, Madrid, C.S.I.C., 1964.

13. Sánchez Álvarez, Mercedes, El Manuscrito Misceláneo 774 de la BNP: Leyendas, Itinerarios de Viajes, Profecías sobre los Moriscos, Madrid, Gredos, 1982.

14. Vernet Ginés, Juan, Literatura Árabe, Barcelona, Labor, 1966.

ثانياً: الدراسات باللغة الفرنسية

1. Babelon, Jean, "Les Morisques en Afrique du Nord", Revue Africaine, Alger, vol. 89, 1945.

2. Lapeyre, Henri, Géographie de l'Espagne Morisque, Paris, S.E.V.P.E.N., 1959.

3. Lévi-Provençal, Évariste, Histoire de l'Espagne musulmane, Paris, Maisonneuve, 1950–1953, 3 vols.

4. Mármol Carvajal, Luis del (trad. fr.), Histoire de la Rébelion des Morisques, Paris, 1667.

5. Wiegers, Gerard, Islamic Literature in Spanish and Aljamiado: Yça of Segovia, His Antecedents and Successors, Leiden, Brill, 1994.

ثالثاً: الدراسات باللغة الإنجليزية

1. Barrios Aguilera, Manuel, La Convivencia Negada: Historia de los Moriscos del Reino de Granada, Granada, Comares, 2007.

2. Boase, Roger (ed.), Islam and Global Dialogue: Religious Pluralism and the Pursuit of Peace, Aldershot, Ashgate, 2005.

3. Caro Baroja, Julio, Los Moriscos del Reino de Granada, Madrid, Instituto de Estudios Políticos, 1957; English translation: The Moriscos of the Kingdom of Granada, London, Tamesis, 2011.

4. Harvey, L. P., Muslims in Spain, 1500 to 1614, Chicago and London, University of Chicago Press, 2005.

5. López-Baralt, Luce, Islam in Spanish Literature: From the Middle Ages to the Present, Leiden, Brill, 1992.

6. López-Baralt, Luce, A Zaga de tu Huella: La Enseñanza de las Lenguas Semíticas en Salamanca en Tiempos de San Juan de la Cruz, Madrid, Trotta, 2006.

7. Márquez Villanueva, Francisco, El Problema Morisco (desde otras laderas), Madrid, Libertarias, 1991.

8. Monroe, James T., Islam and the Arabs in Spanish Scholarship, Leiden, Brill, 1970.

9. Wiegers, Gerard A., Moriscos and Their Cultural Heritage: A Critical Survey of Recent Research, Leiden, Brill, 2001.